عالم جديد

فى طيات هذا الجحيم

بقلم الأستاذ سيد قطب

أيا كانت النهاية الحربية لهذا النضال العنيف الذى تكتوى بلظاه أمم الأرض جميعا ، المحاربون منهم وغير المحاربين. فان فى طياته عالما جديدا تتمخض عنه الوقائع، وهو اليوم جنين أخذت ملامحه فى التكوّن والظهور ، وسيولد يوم تضع الحرب أوزارها ، بل ربما تقف هذه الحرب بمناسبة مولده ، كما وقفت الحرب العظمى الماضية على مولد عالم "ويلسون" وشروطه الأربعة عشر . هذا العالم الذى هو فى طريق الأفول .

ويغلب على ظنى أن سيكون العالم الجديد جديدا بمعنى الكلمة ، وأنه سيختلف عن عالمنا الراهن فى سمات كثيرة — إن لم نقل : إنه سيبنى على أسس غير أسس هذا العالم — وأنه سيحدث انقلابا فى الأوضاع السياسية والاقتصادية، وفى الأسس الاجتماعية والعائلية، وفى التقاليد العقلية والروحية .

ومن واجبنا — كما هو واجب كل أمة تريد الحياة والنماء — أن نتهيأ للسير فى موكب العالم الجديد ، وألا نكون متخلفين عنه بسبب جهلنا لميزانه واتجاهاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والروحية ، أو مدبرين عنه متنكرين له والشعوب كلها تسير فى موكبه !

وهذا يقتضينا كثيرا من اليقظة والتنبه للتيارات الفكرية ، وللسمات الموحية بشكل هذا العالم الذى تتمخض عنه الأيام ، ومن تتبع التطورات السياسية والحربية فى كل بلاد العالم أو على الأقل فى المعسكرين الكبيرين اللذين يتناجزان غير بعيد من مصر ، بل فى داخل حدودها !

ومن الخطأ أن نقف وقفة المتفرج بسبب أننا لا نشترك اشتراكا فعليا فى الحرب ، فقد لا تكون لنا يد فى تشكيل العالم الجديد ، ولكن ينبغى أن نحاول اختيار دورنا فى هذا العالم بعد الحرب ، بدلا من أن نرغم على أداء دور نجهله أو لم نستعد له .

وكذلك من الخطأ أن نقف موقف الانتظار الجامد أمام تطورات هذا الجنين بحجة أننا لا نعرف ملامحه وهو فى عالم الغيب ، وأن التكهن بالمستقبل فى هذه الأيام عسير ؛ فإن بعض هذه الملامح قد اتضح الآن ، وبعضها يمكن التخمين فيه والاستنتاج ، وهما على كل حال خير من موقف الجمود أو الانتظار .

إن المعسكرين الكبيرين — معسكر الديمقراطية ومعسكر الدكتاتورية — لا يتناجزان فى هذه الحرب بالوسائل الحربية وحدها بل يعتمد ان اعتمادا كبيرا على الأسلحة السياسية والاقتصادية، وما "النظام الجديد" الذى يلوح به المحور لدول أوربا، و "النظام الجديد" الذى ترسمه الديمقراطية وتبشر به فى خطب إيدن وروزفلت الأخيرة ، إلا بعض وسائل الكفاح !

ومن خلال هذين النظامين تتبدى ملامح العالم الذى سيكون !

وسأحاول فى هذه الكلمة التكهن ببعض ملامح الجنين الأساسية ورسم صورة تخطيطية لوجهه المرتقب ، فقد تنفعنا فى توجيه سياستنا العامة وتفكيرنا فى المستقبل القريب .

فأما من الوجهتين السياسية والعسكرية ، فأحسب أن التجربة قد دلت على فشل "الدويلات الصغيرة" التى خلقت لتكون سياجا لبعض الدول الكبيرة من الوجهتين السياسية والحربية ، وأن هذه الدويلات وسواها من الأمم الصغيرة ذابت أمام الهجوم الألمانى الكبير ولو كانت كتلا متحدة كبيرة لعز على الفاتحين فتحها فى هذا الزمن الوجيز .

فهى (أولا) لم تؤد الغرض منها وهو حصر الغول الألمانى داخل الأسوار، وهى (ثانيا) جاءت بعكس هذا الغرض لانها أطمعت هذا الغول فيها لصغرها ، وأمدته بالقوة فترة بعد فترة عند اقتحامها فى حين أنه وقف عاجز مدة كبيرة حين انتهت هذه اللقيمات وواجه الأسد البريطانى، ولا عبرة بغلبته على فرنسا ، فقد كانت أمة منحلة مضعضعة مستعدة للتسليم !

وقد بينت هذه الحرب بجلاء أن الأمم الصغيرة لا تستطيع الحياة إلا بمحالفة الأمم الكبيرة إذا لم تستطع أن تتجمع فى اتحادات فتكون هى ممالك كبيرة ، وكشفت بجلاء عن ضعف الحماية الدولية القانونية أمام الوسائل الحربية ، فلا بد من القوة المادية لمقابلة القوة حين تصاب الفطرة البشرية بالانتكاس والجنون .

ومما لا ريب فيه أن الشعوب ستنتفع بهذه الدرس — أيا كانت نتيجة هذه الحرب — وستحاول الأمم الصغيرة تأليف اتحادات إذا لم تستطع الاندماج التام بسبب اختلاف العناصر وهذه إحدى سمات العالم الجديد .

وليس هذا مجرد تخمين ، فإن الأمم الكبيرة نفسها بدأت ترى من مصلحتها أن تجمع أصدقاءها الصغار فى كتل كبيرة ، وأخذت تعدل عن سياسة التفريق التى كانت سياسة تقليدية لها فى كثير من الفترات .

والاتحاد العربى الذى رحب به مستر إيدن وزير خارجية انجلترا هو أحد هذه الاتحادات التى ستسعى الأمم الكبيرة فى خلقها ، بعد تجربة هذه الحرب ، وقد أثبتت بجلاء ضرر وجود الدويلات الصغيرة الضعيفة القوة ، المحدودة الموارد .

فاذا اقتنعنا بأن هذه إحدى سمات العالم الجديد ، كان علينا واجب لأنفسنا وللعالم ، لا يجوز لنا تجاهله أو ترك فرصته السانحة تمر دون أن ننتفع بها وينتفع العالم العربي بل العالم الإنسانى كله .

إن مصر ليست غريبة فى العالم العربى ، بل هى الشقيقة الكبرى لشعوبه ، وهو يترسم خطاها وينتفع بتجاربها ، ويستضىء بنورها ، ويتطلع إليها فى حب وإعجاب وانتظار ، ومكانها فى الاتحاد العربى يجب أن يكون ملحوظا ، ويجب التمهيد له منذ الآن ، ولا يصح الانتظار حتى تضع الحرب أوزارها .

ومن واجب الساسة المصرية ألا يدعوا هذه الفرصة تفلت من أيديهم انتظارا لنتائج الحرب الدائرة ، فها هى ذى حليفتنا الكبرى تبشر بالاتحاد العربى وترحب به والحرب دائرة وهى أعلم بمصائرها لأنها هى المكتوية بنارها ؛ وهى التى تقدر مواردها وموارد خصومها ثم تجد من هذا التقدير أن هناك أملا كبيرا فى النصر لها ولحلفائها .

ولعل التفكير فى هذه المهمة العظيمة التى لا تقتصر على السياسة الداخلية المحدودة ، ولا سياسة هذه الأيام القريبة ، بل تمتد إلى المستقبل كله ، وتجاوز الحدود الجغرافية الحالية إلى مساحات شاسعة — أقول لعل التفكير على هذا النحو خليق أن يحل من مشاكلنا الحزبية الداخلية الشىء الكثير ، ويوسع آفاق التفكير الحزبى القصير .

***

وأما من الوجهة الاقتصادية ، فاحسب أن العشرين عاما التى تلت الحرب الماضية قد أثبتت فشل سياسة الحواجز الجمركية وسياسة " الاكتفاء الذاتى " من وراء هذه الحواجز كما أثبتت أن الشقاء العالمى ثمرة ملازمة لسياسة الاحتكار وعدم توازن الموارد الاقتصادية والمواد الخامة بين أمم الأرض جميعا .

ومن خلال أسس النظام الجديد الذى يلوح به " هتلر " ، وخلال خطب "روزفلت" عن توزيع المواد الخامة ، وخطب " تشرشل وإيدن " عن استعدادات الامبراطورية البريطانية للمساهمة فى إنهاض العالم بعد الحرب بالمواد المخزونة فى أنحائها .

من خلال هذا كله نستطيع أن نتبين سمة من سمات هذا الجانب تنفعنا فى توجيه سياستنا الاقتصادية منذ الآن حتى لا تصطدم مشروعاتنا بالعالم الجديد فتخسر أو تحطم وهى فى مرحلة التكوين .

نحن فى هذه الأيام نبنى تفكيرنا الاقتصادى ومشروعاتنا الصناعية والانتاجية بوجه عام على أساس ما وقع فى الحرب العظمى وما تلاها من السنين . وأخشى أن أقول : إن هذا موضع الخطر ، وأن الواجب تغيير هذا الأساس ، لأنه لن يكون أساس العالم الجديد .

وأزيد هذا الإجمال وضوحا فأذكر أننا نضع الآن مشروعاتنا الاقتصادية والصناعية على أساس الحماية الجمركية ، وأكتفي بمثلين اثنين فى هذا المجال :

أولهما — صناعة النسيج ، وهى فى الغالب تقوم على أساس فرض ضريبة مرتفعة على المنسوجات الاجنبية ولا سيما اليابانية ، هذه الضريبة التى يؤديها المستهلك فى الحقيقة .

وثانيهما — زراعة القمح ، وهى فى الغالب تعتمد على أساس فرض ضريبة مرتفعة على الدقيق الأجنبي ولا سيما الاسترالى ، هذه الضريبة التى يؤديها المستهلك كذلك .

ونحن الآن — محقون فى سياسة الحماية الجمركية ، لأن العالم كله يصنع هذا الذى نصنع ، ولأن سياسة " الاكتفاء الذاتى " هى السائدة فى شعوب كثيرة ، ولأن مواردنا الزراعية لا تتسع إلا لاثنى عشر مليونا من السكان بينما يبلغ عددنا ستة عشر مليونا فى طريقها إلى الزيادة السريعة فلا بد من موارد جديدة فى عالم الصناعة تكافئ الزيادة الحاضرة والمستقبلة .

ولكن ينبغى بجوار هذا الواقع أن نلتفت للمستقبل . فكيف تكون الحال لو تمخض العالم الجديد عن نظام غير النظام الذى يسود عالم اليوم . ولو وزعت الخامات توزيعا متوازنا وأزيلت الحواجز الجمركية أو خففت إلى حد كبير ؟

الذى يحصل أننا لا نستطيع وحدنا التمسك بالنظام القديم ، وأن كل مشروعاتنا التى قامت على أساس الحماية الجمركية تنهار أو تزعزع ، ويكون هذا بمثابة كارثة لاقتصادنا القومى لا تعصمنا منها مواردنا المحدودة .

فمن واجب رجال الاقتصاد منذ اليوم أن يتحسسوا الاتجاه العالمى المقبل ، ويقدروا آثاره فى مشروعاتنا الاقتصادية والصناعية ، ويجعلوا لهذه الآثار مكانها الملحوظ فى كل مشروع .

وأسلم خطة أن نراعى فى مشروعاتنا الجديدة إمكان قيامها على فرض زوال الحواجز الجمركية وبطلان الحماية المصطنعة ، فالصناعة التى تتوافر لنا موادها الخامة بأرخص مما تتوافر فى البلاد الأخرى وتنخفض نفقات إنتاجها العامة عن مثيلها هناك ، بحيث تكون فى سوقنا وفى الاسواق المجاورة أرخص من نظائرها بعد تكاليف الشحن ، هى التى نضمن لها البقاء والدوام فى جميع الأحوال ، لأن حياتها طبيعية تعتمد فيها على ذاتها .

أما الصناعات والمشروعات الأخرى التى تحتاج إلى حماية مصطنعة فمن واجبنا أن نقلل منها اتقاء للهزات الاقتصادية فيما إذا تمخضت هذه الحرب عن عالم جديد متخفف من القيود ، كما تشير بذلك جميع المقدمات .

***

وأما من الوجهة الاجتماعية فيبدو أن الوحدة الاجتماعية فى الشعب ، لن تكون هى الفرد كما كانت الحال فى فرنسا ، ولن تكون هى الدولة كما هى الحال فى الأمم الديكتاتورية . بل ستكون هى الأسرة .

ومعنى هذا أن الحرية الشخصية لن تشط وتوغل فى الفردية كما شطت وأوغلت فى فرنسا بعد الحرب الماضية إلى الحرب الحاضرة . لن يكون الفرد وحدة المجتمع وعموده الفقارى ومحوره الذى يدور عليه ، لأن هذه الفردية المتحررة من جميع القيود أضعفت من قوة فرنسا عندما اصطدمت بعدو منظم متحد الاتجاه .

ولن تكون الدولة كذلك هى محور الحياة بحيث يذوب الفرد فيها ويتلاشى ويصبح أداة من أدواتها كأية آلة توجهه حيث تريد بلا مناقشة ولا تفاهم ، فهذا النظام نكسة لاتطيقها البشرية ولا تصبر عليها مهما بدا فيها من القوة والبريق .

ولكن ستكون الأسرة هى وحدة المجتمع ، سيكون الفرد لبنة من لبنات الأسرة ، وستكون الأسرة وحدة متماسكة فى بناء المجتمع ، وستبدل الدولة للأسرة حمايتها وتسهيلاتها فتحوطها بالرعاية والتشجيع ، ويبدو أثر هذا فى النظم والتشريع .

وقد أخذت بعض الأمم فعلا بنظام الأسرة — كفرنسا الجديدة — وهذا النظام عند بعض الشعوب يحرم توزيع الملكية الزراعية التى تملكها الأسرة فيساعد هذا التحريم على بقائها متماسكة لاصقة بمورد حياتها كما تبدو آثاره فى حقوق الأبوين على الأبناء حتى بعد سن البلوغ ، وفى عقاب الآباء والأمهات المهملين فى تربية أطفالهم وهكذا . . .

وقد كانت انجلترا من بين الشعوب الديمقراطية هى المثل الأعلى لنظام الأسرة فى المجتمع ، فالبيت الانجليزى حرم تحيطه القوانين والتقاليد بالقداسة كما تحيط المعابد ، وتوارث اسم الأسرة ولقبها نظام معترف به ؛ ولعل هذا من أهم أسباب صمودها العجيب أمام العاصفة المدمرة !

ومصر من هذه الوجهة فى وضع تحمد الله عليه ، لأن نظام الأسرة لم يتضعضع فيها كما تضعضع فى شعوب كثيرة بعد الحرب الماضية ، وذلك بسبب تقاليدها الريفية القوية — هذه التقاليد التى حفظت كيانها القومى على ممر الأجيال .

ولكن هذا لا يعنى أن ليس عندنا ما يعاب من هذه الوجهة ، فتماسك الأسرة فى مصر تماسك فطرى لم تهذبه القوانين ولم يدخل عليه أى إصلاح . ومن الواجب أن يتجه تفكيرنا الاجتماعى إلى توفير الملكيات الزراعية الصغيرة وتشجيعها وحمايتها والاحتفاظ بحد أدنى منها لا يجوز تقسيمه بل يعوض الورثة بالمال عن نصيبهم فيه ، ومن أهم الدعائم التى تحافظ على كيان الأسرة وتلم شملها وجود ملكية زراعية ومنزل مملوك لها يحميها القانون من الحجز والضياع .

وكذلك يجب أن يبرز القانون تبعات الوالدين فى صحة الأطفال وتربيتهم ، فيمتنع كثير من التشرد الناشئ عن إهمال أولياء الأمور ، وتقل الأمراض والتشوهات الناتجة عن هذا الإهمال أو عن الأمراض الوراثية . فعقاب الأبوين اللذين يورثان طفلهما مرضا خبيثا كفيل بتحرزهما قبل الزواج وبعده... وهكذا

وفى نظير هذا يجب أن تشجع الأسرة على الحياة اللائقة بالمعاونات المادية والأدبية التى لا يتسع المجال هنا لبيانها ، ولا يعسر الاهتداء اليها فى نظم الشعوب التى وضعت حياتها العامة على هذا الأساس .

وسمة أخرى من سمات المجتمع تتبلور الآن وتتضح من خلال النظام الحاضر ، هى سمة التضامن الاجتماعى بين الطبقات ، بين المتنعمين والمحرومين ، بين الأغنياء والفقراء . ومع توافر هذه السمة فى المجتمع الانجليزى حتى قبل الحرب ، فإن الظواهر تدل على أنها ستخطو خطوات جديدة نحو الاشتراكية الديمقراطية على وجه من الوجوه ، وقد جاء فى قرار عمال استراليا أنهم يتجهون هذا الاتجاه ولكنهم يستمرون فى الحرب "بقصد الانتقام لما حدث فى لندن"

ونحن فى حاجة إلى التزود من هذا الزاد ، فالمجتمع المصرى من هذه الوجهة أشد المجتمعات الإنسانية اختلالا ، ومن الواجب أن نستعد منذ الآن — إن لم نبدأ بالفعل — فى تحقيق التضامن الاجتماعى ، بإعفاء الطبقات الفقيرة من معظم الضرائب التى تقتطع الآن من أقواتها ، و إضافتها فى صورة ضرائب متدرجة على أصحاب الإيرادات العالية . وكذلك بإلغاء الكثير من الضرائب غير المباشرة أى الضرائب الجمركية التى يؤديها الجميع ، إلى الضرائب المباشرة التى يتعين على الثروات الكبيرة أداؤها كما هى الحال فى انجلترا .

وذلك التدبير تشير الوقائع بأنه التدبير الوحيد الواقى من الهزات الاجتماعية العنيفة والكفيل بتوازن المجتمع وتضامنه فى العالم الجديد الذى تتمخض عنه الأيام .

وأما من الوجهة الروحية والخلقية ، فيبدو لى أن العالم الجديد سيجد نفسه مضطرا أن يأوى إلى ظل من الدين والخلق والروحانية بصفة عامة ، بعد مالاقى من الجهد المضنى والعناء القاتل فى جهنم المادية و جحيم الإباحية .

وتبدو طلائع هذا الاتجاه فى فرنسا المتحللة المريضة الغارقة فى الشهوات ، كما تبدو فى الاستمساك الشديد بالتقاليد السمحة فى خطب روزفلت والدفاع عن المبادئ الإنسانية ضد البربرية المتكسة إلى عالم الادغال وشريعة الغاب .

وهذا الاتجاه الجديد لا يكلفنا نحن المصريين أكثر من الاهتداء إلى روحنا العريقة وتقاليدنا الخالدة ، حينما نزيح عن بصائرنا هذه الغشاوة التى رانت عليها من غبار المادية الأوربية ، وسنجد فى كنوزنا الروحية ثروة نقتات منها فى العالم الجديد ، ثروة تمكننا من هضم الحضارة الأوربية المادية والانتفاع بها دون أن تفسد فطرتنا وتحيلنا آلات خشنة جافة كما أحالت كثيرا من الأوربيين .

*
* *

هذه هى الخطوط البارزة فى صورة العالم الذى يتمخض عنه هذا الجحيم البشرى . فعلينا أن نتهيأ ونستعد ، وألا تشغلنا الأحداث الحاضرة مهما عظمت عن هذا المستقبل القريب ؟

سيد قطب